الفصل السابع والعشرون

الراية والجلاد

ما أقدر الإنسان على الإحتمال ان كانت أعماقه سليمة لا ازدواجية فيها ولا تذبـذب ولا نفاق..

وقديما سار المسيحيون الأوائل الى حلبة الوحوش المفترسة دون أن يقولـوا نعـم لجلاديهم.. وقبلهم هب سبارتكوس ووراءه العبيد على ظلم روما فنزفوا علـى الـصلبان تقديسا للحرية.. ومات المسلمون الأوائل تحت السياط وأجسادهم تلهبها رمال الـصحراء المحرقة وهم يهتفون "الله أحـد!"..

ما الأديان في مستهلّها الاّ راية جديدة، تُرفع لتحرير الإنسان، ثورة على العبودية!

وكلّما ارتفعت راية ضد الظلم، تحرك معها سوط جلاّد لقمعهـا.. ولكـن الرايـة تنتصر، والجلاد يبوء بغضب الأجيال.. مظلمة عمياء هي أسماء كراسـوس ونيـرون، وجوليان وتيتوس ويهودا الإسخريوطي وأبو جهل وسواه.. وعظيمة كثريات السماء هي أسماء سقراط وسبارتاكوس.. وأصحاب الرسالات المقدسة: موسى والمسيح ومحمد..

كلّ السوط اللئيم الحاقد وما استطاع إقناع أحد أنه على باطل وخصمه على حـق.. لأن السوط يملك القدرة على الإخضاع، ولا يملك القدرة على الإقناع!..

وفي منتصف القرن العشرين كان لا يزال السوط لغة التفاهم بـين البـشر.. وبـه تفرض الآراء ووجهات النظر، وبه تحنى هامات الخصوم.. "تكون معي، أو علي!" هكذا يطلق السوط ألسنته الشريرة السامة مستعدا للإنقضاض يتلوى كأفـاعي الـسحرة التـي التهمتها عصا موسى، عصا الثورة والـصمود.. واذا بالإنـسان، كتلـة اللحـم والـدم والأعصاب، الجسد الواهن الذي يعرف الألم ويحس لهب السوط تنبت له في جنبيه أجنحة يطير بها فوق ذاته، واذا بجراحه تهون وبإرادته تصلب، وبحجته تبلغ الذرى..

وفي مستشفى السجن التقى أحمد بعدد من الرجال الذين قالوا للسوط لا بالرغم ممـا نال الأذى من أجسادهم..

التقى برزق الله شماس، وهو طويل القامة ممتلئ الجسم، له وجه طفولي ويتحـدث بصوت منخفض مجهد قصير النفس.. وكان أحمد يسمع عن مكانته بـين الأرثـوذكس، ولكن معرفته به لم تتوثق الاّ في المستشفى..

كان الرجل مصابا بحصوة في مرارته، وكلما أصابته نوبة جيء به الى المستشفى، وأحاط به رجال المباحث يساومونه على الآلام التي يعانيها بإرضاخه الى شروطهم لقاء إجراء العملية، وكان يرفض، فيأمرون الأطباء أن يخدروه ويتركوه دون أن يقطعوا في أمره، فيفيق من البنج ليجد أنه على وضعه الأول، ويعاد الى السجن فلا تمضي فترة حتى يصاب بنوبة أخرى بسبب الظروف اللاإنسانية التي يعيش فيها والطعام الرديء الذي يأكله، وهكذا دواليك.. وكانت هذه هي المرة السادسة التي جيء به فيها الى المستشفى ولقد قرر الطبيب إجراء العملية مهما ترتّب على ذلك من مسؤولية خطيرة.. وقامت بينه وبين المباحث مشادة عنيفة، هددوه فيها بفصله من عمله وملاحقته.. فالتجأ الى مطران الأرثوذكس، وأخبره عن حالته قائلا أن قلب السجين قد ضعف ولا يمكن له أن يستمر على قيد الحياة لو أعاقوه عن إجراء العملية.. فذهب المطران مع لفيف من القساوسة الى المقدم حميد يسترحموه في شأنه فأجريت له العملية..

وكان الأستاذ رزق الله في دور النقاهة حين دخل أحمد المستشفى مصابا بكسر في ذراعه، ولم يلبث بعد التجبير أن أخذ و رزق الله يتبادلان الحديث، وكان موضوع حديثهما ماجر ذلك المرتد في اللجنة المركزية على الحركة من مآس.. قال:

- كنت بين المنتقدين الذين حذّروا القيادة من الرجل، فكانت النتيجة فصل المنتقدين وبقاءه هو في اللجنة المركزية..

-هناك خطأ يجب أن لا نصمت عنه.. ان قدرت لي الحياة فلن أصمت عن ممارسة حقي في اختيار القيادة..

-ليس في الحزب ديموقراطية وهذا نقطة ضعفه.. أقولها بصريح العبارة.. لقد فقدنا خيرة رجالنا بالنتيجة..

-نحن الذين نعطيه القوة في اختيارنا له في اللجنة المركزية، ألا يحق لنا مناقشته ان أحسن استعمالها أم أساء؟ أيحق لي أن أزعمه ولا يكون لي الحق أن أشده من أذنه وألقيه خارجا ان وجدت أنه غير جدير؟

كان رزق الله يهز رأسه موافقا دون أن يتكلم.. فأردف أحمد:

-أنا وهو نؤمن بأيديولوجية واحدة هي كل قوتنا، فما الذي يسوده علي؟ يريد أن يوهمنا أنه المبدأ قد تقمص إنسانا؟ أحركتنا لعبة حواة وكشاتبين؟

-ياأحمد هكذا بنيت الهياكل والكنائس فحيث ينصب فرد نفسه إلاها يكثر حوله الكهنـة وعبدة الأوثان.. لماذا نلوم هذا الحكم الفردي الذي نعاني منه إذا كنا في حركتنـا غيـر ديموقراطيين؟ إزميلي وإزميله اشتركا في نحت تمثال لقوة هذه الحركة، لا ليختفي هـو وراءها كأنبياء الموحى وأقدم أنا خضوعي.. حطمنا أوثان ألوف السنين التي خلت لنعيش أحرارا متكافئين لا لنكبل بالأغلال من جديد.. ليس مبدؤنا يستمد قوته من الغيبيات بـل من العلم.. ليس شعائر عبادة ولكنه سيادة العقل في رؤية واقع الحياة..

أحس رزق الله بصداع في رأسه فأمسك به يضغط عليه.. سأله أحمد عـن سـببه فأخبره أن صداعه الدائم هو بسبب كسر قديم في رأسه يهاجمه حينا بعد حين عند تتـوتر أعصابه، وأردف:

-منذ عشرين عاما هاجم الإخوان مكتب الحزب وكان فيه ستة من الرفاق، وسكب أحدهم فيه غازا وأشعل النار.. هرب الشباب من النوافذ وبقي واحـد يغطـيهم بـإطلاق الرصاص.. وكنت بين من هربوا وأخذت أركض فوق الأسطحة فشاهدني أحـد المـارة وصاح "شيوعي، شيوعي" وأطلقوا علي الرصاص فأصيبت ساقي.. ان كنت لاحظت فأنا أعرج قليلا حين أمشي.. وقعت على الأرض فانهال علي أحدهم ضربا علـى جمجمتـي بقطعة حديد، وجاءت الشرطة وخلصتني من بين أيديهم وذهبوا بي الى المستشفى وكـان في جمجمتي كسر وبقيت في حالة خطرة بضعة أشهر.. في ذلك الحين لم أكن بعـد قـد قررت الإنضمام الى الحزب..

تصور يا أحمد أن خمسة عشر ألفا كانوا يطوقون مكتب الحزب بسبب قرار التقسيم الذي وافق عليه حزبنا..

-لماذا وافق على هذا القرار؟

-لم أكن أنا ممن وافقوا عليه في ذلك الحين!.. ولكنني أفكر اليوم ألم تكن الموافقـة عليه أفضل من نتائج رفضه؟

-ان ما يجري في فلسطين هو أبعد خطرا من كل تصوراتنا.. لـم نعـط القـضية الفلسطينية حقها من الدراسة.. لسنا على مستوى هذا الحدث الخطيـر.. منـذ العـصر العبودي لم يحدث في التاريخ أن اقتلع شعب من أرضه ليحتلها شعب غريب! واذا قلنـا اسرائيل فعلينا أن نقول أمريكا، لأنها ليست الاّ قاعدة متقدمة لاستعمارها الحديث، وليست

كما تقول رجعيتنا بأن أمريكا مغلوبة على أمرها أمام ضغط اسرائيل ووزنها الثقيل في انتخابات الرئاسة الأمريكية..

- مهما كانت الحال فاننا عزلنا عزلة مريرة لا نستحقها مرتين، مرة من أجل الموافقة على قرار التقسيم خوفا من بلاء أعظم، ومرة لرفضنا الوحدة البرجوازية خوفا من تعسفها بحق جماهيرنا.. الجماهير ليست معنا يا أحمد.. نحن نثخن بالجراح، وقلوب الجماهير لا تحس بنا!..

-لقد استطاعت الرجعية أن تخدع الجماهير عن طريق أشرف عواطفها..ان نماذج الخونة فريدة في نوعها في بلادنا.. الثائر والسمسار واحد، المطالب بقذف اسرائيل في البحر والمستجدي أميركا واحد، الشاتم حاف بغداد والساعي وراء حاف البحر الأحمر واحد، المصافح السوفييت بيمينه، وقاتل الشيوعي بشماله واحد.. هذه ظواهر معقدة دقيقة تقصر الجماهير عن فهم كوامنها بالعين المجردة..

-حتى المثقفين ان لم يملكوا نظرة شاملة لما يجري في العالم من أحداث!

-وحين يستفيقون يكون قد فات الأوان..

-هذا سبب إصرارهم لتحطيمنا.. المجهر يخيفهم، هم مستعدون لذبحنا، لأننا نعرقل ونشوش مسيرتهم..

كان أحمد يمر بالغرف الأخرى للمستشفى حين يذهب لحاجته، وكان المرضى معظمهم من السجناء السياسيين الذين غص السجن بهم بعد الوحدة فهذا قد ضرب على رأسه حتى أصيب بحمى دماغية، وهذا فقد سمعه، وهذا مصاب بكسور.. وشاهد الضابط الذي ألقي به أمامهم وهو ينزف دما من فمه، وهشّ اذ عرفه أحمد بنفسه.. لم يكن قادرا على الكلام، ولما مر به مرة أخرى كان قد انقطع النزيف من رئته والتأم الشريان متجاوزا الخطر.. كان قلقا مذعورا فاستبقى أحمد وقال له:

-أخشى العودة الى السجن.. لا بد أنهم سيقتلونني..

-الأيام الأولى هي الأيام العصيبة، فاذا نجوت منها نجوت فيما يلي من الأيام.. لم تعد الحديدة حامية.. كلّوا وملّوا!

-أمري مختلف.. كنت غبيا وأشعرتهم أنني أعرف سرهم.. سيقتلوني!

-شد حيلك لا تقتل الشدة الرجال.. أيام وسيتحسن حالك..

- قد أموت في أية لحظة.. لاأريد أن أدفن سري معي..

-لا تتحدث! يؤذيك الكلام..

-أسمع عنك، وأثق بك.. خبر أهلي بما أقوله لك..

-خير انشاء الله!

-أنا ضابط مسؤول عن طائرات الميج 21 للهجوم الليلي في مطار المـزة.. لابـد سمعت بقصف الطائرات الإسرائيلة للمطار الأحد الماضي.. قبل الحادث تلقيت خبرا بأن والدي في حالة خطرة وأن علي أن أذهب لأراه.. أسرعت كالطير ولدهشتي وجدت أبي سليما معافى فتملكتني الريبة، وعدت لتوي وفي الطريق سمعت بقصف المطار.. فتحـت جهاز اللاسلكي أول ما وصلت المطار فسمعت أصواتا مصرية وأوامر باللغة العربيـة، حملت الجهاز وذهبت الى رئيس الأركان.. كان عنده ضابط قلت له أن الطائرات التـي قصفت المطار هي طائرات مصرية وليست اسرائيلية، نظر أحدهما الى الآخر ثم أمراني بالإنصراف والصمت.. ولم أكد أترك الأركان حتى هاجمني رجال الشرطة وانهالوا علي بالضرب، وجاؤوا بي الى المخفر، ودخلت علي امرأة فأشاروا الي وسألوها "أهذا هـو؟" فأجابت "نعم، انه هو الذي حاول الإعتداء علي وأنا في فندق الشرق ليلة البارحة." .. لم تكن الشرطة تريد النقاش، ولكن كانت لديهم أوامر بضربي حتى الموت.. لم تفد مكـانتي كضابط.. أدركت بعد فوات الأوان الحماقة التي ارتكبتها.. لم تكن قصة المرأة الاّ ستارا لتصفيتي، ان ذنبي أنني اطّلعت على سر خطير يخشون انتشاره!

وسأل أحمد دهشا، غير قادر على ابتلاع مثل هذه القصة..

-ولماذا تقصف الطائرات المصرية مطار المزة وهم في الحكم.. ما الغاية من هذا؟

-الأمر واضح.. كانت الغاية هي الحصول على طائراتنا الميج الجديدة.. ولم يكـن هذا ممكنا دون افتعال حادثة.. طائرات دفعنا ثمنها دم قلبنا، ملايين الليرات.. انهم يقولون حينذاك أن طائراتنا قد أقلعت إثر الطائرات المغيرة، ثم يحتجزونها في مصر بدون إثارة ضجة!..

* * *